

بعض من نماذج الإعجاز الصوتي في حروف و ألفاظ القرآن الكريم

إعداد: د, عمر عماري

جامعة الحاج لخضر باتنة 1

قسم أصول الدين

Email :amar.amari@univ-batna.dz

ملخص البحث: إنّ القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة لدين الإسلام، و لا يزال القرآن يبهر الباحثين من كل الأديان . و حتى الملحدّين . في مجالات كثيرة من مواضيع الإعجاز فيه، ولقد جاء هذا القرآن أولاً ليعجز العرب في بلاغتهم و حسن بياهم ، و لكن هذا الوحي الإلهي أعجز كل العلماء في كل العصور وفي جميع مجالات البحث، ومنها الصوت اللغوي في القرآن و الجانب الفني فيه، فقد بيّنا في هذا البحث الجانب الفني في أصوات ألفاظ القرآن و حسن النظم ، و تناولنا بعض النماذج من الإعجاز الصوتي في حروفه و في ألفاظه، و في وقوفات الآي فيه، فكان القرآن كلاماً حسن النظم في أرقى صورة يدخل إلى القلوب و يأخذ بالألباب، وإن كان أعجمي اللسان، لأنّه ببساطة يخاطب الفطرة الإنسانية السليمة .

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والذي أحكم آياته أحسن تحكيماً، وفصلها من لّدنه أحسن تفصيلاً، والصلاة والسلام على خير من تلى القرآن بأفصح لسان، وجوّده أحسن تجويداً، سيّدنا محمّد سيد المعلمين و المقرئين و على آله و صحبه الكرام الغرّ الميامين وعلى من اتّبعتهم بإحسان إلى يوم الدين، أمّا بعد:

لقد كانت اللّغة العربيّة ولا تزال لغةً ساحرةً في أصوات حروفها و جزالة ألفاظها و في بلاغتها و بياها ما يأخذ بالألباب، وهي التي أذهلت النّاس عن أنفسهم، واقشعرت لها أبدانهم، فخرّوا لها خاشعين، ولقد افتخرت العرب بلغتها قبل الإسلام وتباهت ببلاغتها وفصاحتها وبيائها، حتى جاء هذا

القرآن فازدادت رفعة و مكانة بين لغات العالم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ ﴾
 يوسف: 2، وقال تعالى: ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ١٥٣ ﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ ١٥٤ ﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ ١٥٥ ﴾
 الإسراء: 193-195، ولقد تحدى الله سبحانه وتعالى معشر الإنس و الجن على أن يأتوا بمثله ، فقد
 قال: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۚ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٨٨ ﴾
 الإسراء: 88 ولقد كان القرآن ولا يزال إلى يوم الدين المعجزة الخالدة، التي جاء بها رسول الله صلى
 الله عليه و آله وسلم، و المعجزة هي أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة و هي إما
 حسية أو عقلية.¹

فعجزت البشرية على أن تأتي بكلام يضاهي القرآن الكريم في فصاحته و بلاغته و بيانه و جزالة
 ألفاظه و في عجائبه و أسراره و مكنوناته و في علومه التي لا تنتهي، و في تناسق أصوات حروفه و ألفاظه
 وحتى في موسيقاه منذ أن نزل و إلى يوم الدين. فكان كتابا معجزا في كل شيء، ولهذا خصه العلماء
 المسلمون و غير المسلمين و إلى يوم هذا، بالبحث و الدراسة في مجالات إعجازه، فتناولوا إعجازه في
 البلاغة و البيان و الفصاحة، ومنها الرصف و النظم، و إعجازه في الأخبار عن الأمور الماضية و ما فيه
 من علم الغيب و المستقبل، و في العصر الحديث؛ بحثوا عن الإعجاز العلمي فيه.

كما أنّ هناك مجال آخر من الإعجاز تناولته العلماء القدماء من المسلمين بالبحث . تحت باب
 البلاغة و البيان . وهو الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم كالرماني(376هـ)، و الباقلاني (403هـ) و
 الجرجاني(407هـ) و غيرهم، و من العلماء في العصر الحديث كالرافعي و سيد قطب و غيرهم في العصر
 الحالي، متمثلا في أصوات حروف و ألفاظ القرآن و في إيقاعها الموسيقي بما يسمى في علم الأصوات
 بالصوت اللغوي. فهل يمكن أن يكون في أصوات الحروف العربية و في الصوت اللغوي القرآني إعجاز
 صوتي؟ وهل في أصوات القرآن جانب موسيقي فتي؟

سنحاول الإجابة عن هذه الإشكالية في محورين أساسين هما:

المحور الأول: الأصوات اللغوية القرآنية ودورها في حسن الإيقاع

المحور الثاني: الإعجاز الصوتي لأصوات الحروف وتناسقها في الألفاظ القرآنية

¹ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وتعليق مصطفى شيخ
 مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى سنة 2008، ص645

المحور الأول: الأصوات اللغوية القرآنية و دورها في حسن الإيقاع

سنتاول في هذا المطلب ثلاثة عناصر: مفهوم الصوت اللغوي، ثم أثره على النفس، ثم النظم القرآني و ألحانه.

أ- مفهوم الصوت اللغوي

الصوت في اللغة هو جزس الكلام و الجمع أصوات ، ورجل صائت إذا صاح و صيئت قوي الصوت ، ومعنى الجزس الكلام الخفي، يقال: لا يسمع له جزس و لاهمس، وجرس فلان الكلام نغم به، وجرس بشيء تكلم به وتنغم و أجرس صوت، والجرس الصوت نفسه أو الخفي منه.¹

ويعرف ابن جني(392هـ) الصوت، فيقول: هو عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق و الفم و الشفتين مقاطع تنبيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا.² أما حقيقة الصوت مهما كان مصدره أو أصله فهو يحتوي على اضطراب مادي في الهواء يتمثل في قوة أو ضعف سريعين للضغط المتحرك من المصدر في اتجاه الخارج، ثم ضعف تدريجي ينتهي إلى نقطة الزوال النهائي.³

أما المقصود بالصوت اللغوي - و الذي يدخل في علم الصوتيات الحديث - فهو البنية اللغوية الصغرى المكونة للكلمات⁴، وينتج عن أربع عمليات منفصلة هي حركة تيار الهواء التي ترتبط بالرئتين، ونشاط التصويت الذي يرتبط بالحلين الصوتيين، وزيادة حجم الصوت الذي يرتبط بفجوات الأنف و الفم، و العملية النطقية التي ترتبط باللسان و الشفتين.⁵

وقد ثبت علميا أن الصوت؛ هو عبارة عن اهتزازات محسوسة في موجات الهواء، تنطلق من جهة الصوت، وتذبذب من مصانعه المصدرة له، فتسبح في الفضاء حتى تتلاشى، ويستقر الجزء الأكبر منها

¹ انظر: مختار الصحاح، كتاب مصور- ص156، المصباح المنير، كتاب مصور، ص36، المعجم الوسيط، مجمع

اللغة العربية، وزارة التربية و التعليم، مصر، طبعة 1994، ص116

² ابن جني، سر صناعة الإعراب، جامعة القصيم، السعودية، ص6

³ أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب القاهرة، مصر، طبعة سنة 1997، ص20-21

⁴ دفة بلقاسم، نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم _ دراسة دلالية- مجلة كلية الآداب الإنسانية و الاجتماعية جوان 2009، جامعة محمد خيضر، بسكرة،

⁵ أحمد زرقة، أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر و التوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى 1993 ص76.

في السمع بحسب درجة تذبذبها، فتوحي بدلائلها، فرحا أو حزنا، نخبيا أو أمرا، خيرا أو إنشاء، صدى أو موسيقى، أو شيئا عاديا مما يفسره التشابك العصبي في الدماغ، أو يترجمه الحس المتوافر في أجهزة المخ بكل دقائقها.¹

أمّا مفهوم الصوت غنائيا؛ فهو تعبير عن كل لحن يردد على نحو خاص من الترجيع في الشعر العربي له طريقة محددة، و رسم يعرف به.²

خلاصة: اللغة عبارة عن مجموعة من الأصوات، يُعَبَّرُ بها كلّ قوم عن أغراضهم، فالصوت بوصفه لغويا يعني: تتبع الظواهر الصوتية لحروف المعجم العربي، من حيث مخارج الأصوات و مدارجها، و أقسامها و أصنافها، و أحكامها و عللها، و دلائلها،

و خصائصها في أحوال الجهر و الهمس و الشدّة و الرخاوة، و ملامح صوائتها و صوامتها في السكون و عند الحركة، و ضوابطها في الإطباق و الانفتاح.³

ب- أثر أصوات القرآن على النفس

ليس يخفى أنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إمّا هو سبب في تنوع الصوت، بما يخرجه فيه مدا، أو غنة، أو لينا أو شدة، وبما يهيء من الحركات المختلفة في اضطرابه و تتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو

¹ أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب القاهرة، مصر، طبعة سنة 1997، ص 14

² محمد حسين علي الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة 1، سنة 2000، ص 14، 15

³ ولقد بحث الصوت اللغوي في القرآن من العلماء القدماء منهم: علي بن عيسى الرماني(376هـ)، و أبو بكر الباقلائي(403هـ)، و أبو عمرو الداني(444هـ)، و محمد بن الحسن الطوسي(460هـ)، و جار الله الزمخشري(538هـ)، و أبو علي الطبرسي(548هـ)، و عبد الله بن محمد النكزاي(683هـ)، و إبراهيم بن عمر الجعبري(732هـ)، و بدر الدين الزركشي(793هـ)، و جلال الدين السيوطي(911هـ)، و أما الدراسات البلاغية التي اشتملت على خصائص الأصوات فقد بحثت على أيدي علماء متمرسين كالشريف الرضي(406هـ)، و عبد القاهر الجرجاني(471هـ)، و ابن سنان الخفاجي(466هـ)، و أبي يعقوب السكاكي(626هـ). انظر: محمد علي الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، مصدر سابق، ص 78.

الإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحلاوة، و الارتفاع و الاهتزاز و بعد المدى و نحوها، ممّا هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.¹

ولقد تجلت بلاغة الصوت . في لغة الموسيقى . في أعلى درجاته في القرآن الكريم، و بالتالي فإنّ ملامح الظاهرة الصوتية في التراث العربي الإسلامي يوصلنا إلى أنّ القرآن الكريم هو المنطلق الأساس فيها، وأنّه قد نبّه بتأكيد بالغ على مهمّة الصوت اللّغوي في إثارة الإحساس الوجداني عند العرب، وإيقاظ الضمائر الإنسانية للتوجه نحوه لدى استعماله الحروف الهجائية المقطعة في جمهرة من فواتح السور القرآنية، و في أسرار فواصل الآيات، و في قيم الأداء القرآني، و في الدلالة الصوتية للألفاظ في القرآن.²

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللّغات كلّها في هزّ الشّعور واستثارته من أعماق النّفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي.³

ج- النّظم القرآني وألحانه

قال الإمام السيوطي (911هـ) عن أثر النّظم القرآني على النّفس و القلب: " هو صينعه في القلوب و تأثيره في النّفوس، فإنّك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما و لا منشورا إذا فرغ السّمع خالص له إلى القلب، من اللّذة و الحلاوة في حال، و من الرّوعة و المهابة في حال آخر، ما يخلص منه إليه، قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۗ اللَّهُ يَضِلُّ ۖ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ الزمر: 23. ⁴

وحسبنا اعتراف الوليد بن المغيرة لما سمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۗ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ النحل: 90، قال:

¹ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة سنة 1973ص216

² محمد علي الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، مصدر سابق، ص76

³ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة سنة 1973ص216

⁴ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص653

" و الله إنّ له لحلاوةً و إنّ عليه لطلاوةً و إنّ أسفله لمغدق و إنّ أعلاه لمثمر و ما هو بكلام بشر"، وهي كناية عن عدوبة ألفاظ القرآن الكريم، وجزالتها، وحلاوتها، وقوة تركيبه، وسمو معانيه، وأخذه بمجامع القلوب، وعلوه على كل كلام.

وذكر أبو عبيدة أنّ أعرابيا سمع رجلا يقرأ: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾¹ الحجر: 94 فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة "اصدع" في إبانيتها عن الدعوة والجمهور بها والشجاعة فيها، وكلمة "بما تؤمر" في إيجازها وجمعها.¹
إنّ طريقة النظم التي اتسمت بها ألفاظ القرآن و تألفت لها حروف هذه الألفاظ، جعلت المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن و لا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن سمعه بد من الاسترسال إليه والتوفر على الإصغاء لا يستلهمه أمر من دونه...فإنّه يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية في انسجامه و اطراد نسقه و اتزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا و نبرة نبرة كأنّها توقعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة.

فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه القرآن على قريش رأوا حروفه في كلماته، و كلماته في جملة ألحانا لغوية رائعة، كأنّها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقعها. فلم يفهم هذا المعنى، و أنّه لا قبل لهم به، و كان ذلك أبين في عجزهم، حتى إنّ من عارضه منهم، كمسيلمة جرح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه، وطوى عمّا وراء ذلك التصرف في اللّغة و أساليبها و محاسنها و دقائق التركيب البياني، فكأنّه فطن إلى الصدمة الأولى للنفس العربية، و إنّما هي في أوزان الكلمات وأجرام الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلاّ أن يكون وزنا من الشعر أو السجع.²

قلت: إنّ حُسن الأداء في التلاوة القرآنية المجودة، لها إيقاع منتظم في أصواتها بسبب تساوي مقادير الحركات و أنواع المدود، و كذلك تساوي المقاطع الصوتية لرؤوس الآي؛ تلند له الأسماع البشرية عموما - و إنّ لم تُفهم كلمات القرآن عند الأعاجم كما هو واقع ومعلوم - وتأخذ بشغاف القلوب وهذا ما يسمى بالإيقاع الموسيقي.

¹ الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، تفسير التحرير و التنوير، دار التونسية للنشر ط 1984، ص107

² مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة سنة 1973، ص213-214

يقول السيد قطب رحمه الله: وهذا الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخير الألفاظ و نظمها في نسق خاص، و مع هذه الظاهرة واضحة جد الوضوح في القرآن وعميقة كل العمق في بيانه الفني.¹

المحور الثاني: الإعجاز الصوتي لأصوات الحروف و تناسقها في الألفاظ القرآنية

سنتناول في هذا المطلب أولاً أثر صفات الحروف و تناغمها مع معاني الألفاظ، ثم ثانياً تساوي فونومينات الألفاظ في رؤوس الآي.

أ- أثر صفات الحروف و تناغمها مع معاني الألفاظ (المحاكاة بهيئة الصوت)

تختلف أجراس الحروف حسب اختلاف مقاطعها... ألا ترى أنك تبتدىء الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرساً ما، فإن انتقلت منه راجعاً عنه، أو متجاوزاً له، ثم قطعت، أحسست عند ذلك صدئاً غير الصدى الأول.²

المتتبع لألفاظ القرآن يجد بأن أصوات الحروف تخدم معانيها، ولقد اتّصفت الحروف العربية بصفات تناولها علماء اللّغة و علماء القراءات و عبّروا عنها باصطلاحات مختلفة فعند اللغويين الحروف الانفجارية وهي الحروف الشديدة عند علماء القراءات، و الحروف الاحتكاكية و هي عند علماء التّجويد الحروف الرخوة، و اتّفقوا على صفة الجهر و الهمس والصفير و التكرير و القلقلة و التفشي وغيرها من الصفات الأخرى، و سوف نتكلم في هذا الفرع من هذا المطلب عن بعض التّماذج من بعض الألفاظ القرآنية، جاءت فيها حروف اتّصفت بصفات معينة.

وعلى سبيل المثال؛ صفة القلقلة التي معناها في اللّغة: التحرك و الاضطراب، و في الاصطلاح؛ قوّة اضطراب صوت الحرف الساكن في مخرجه ليظهر ظهوراً كاملاً³، وهي موجودة في خمسة أحرف و هي: القاف، الطاء، الباء، الجيم، الدال، ولقد امتازت هذه الحروف بصفة القوّة، فهي حروف انفجارية،

¹ السيد قطب، التصوير الفنّي في القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة 17، سنة 2004ص87

² ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، مصدر سابق، ص6

³ محمود خليل الحصري، أحكام قراءة القرآن، تعليق: محمد طلحة بلال منيار، المكتبة المكية، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثالثة سنة 1997، ص98

مجهورة ، و لقد امتازت الطاء و القاف و الباء و الدال بالجهر و الشدة، وعندما تكون هذه الحروف ساكنة نسمع صوت القلقلة، وهي كأننا نردد صوت أحد هذه الحروف بعد سماعنا وهي ساكنة، فسمعه مرّة أخرى مفتوحا بفتحة مختلطة ، و هذا ما رجحه في أداءها الشيخ محمود خليل الحصري عندما تكلم عن كيفية القلقلة فقال: ذهب جمهور علماء الأداء أنّها تكون مائلة إلى الفتح مطلقا.¹

قال علماء الأداء عن صوت القاف، حتى يسمع لها نبرة قويّة لما فيها من شدّة الصوت الصاعد بها مع الضغط.²

وفي هذا الصدد يقول الإمام السيوطي(911هـ) : أنّ من بين أنواع الإعجاز القرآني ائتلاف اللفظ مع ائتلافه في المعنى: " تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخما كانت ألفاظه فخمة، أو جزلا فجزلة"... كقوله تعالى: ﴿فَكُبْكَبُوا فِيهَاهُمُ وَالْعَاوُنُ ﴿٩٤﴾﴾ الشعراء: 94، فهو أبلغ من "كُبُّوا" للإشارة أنهم يُكَبُّونَ كَبًّا عنيفا فظيعا.³ ، وجاء في تفسير القرطبي: فكبكبو أي ألقى بعضهم على بعض.⁴ قلت: فإذا تمعنا في صوت الباء الساكنة و قلقلتها جاءت في الجزء الأول من كلمة "كُبْكَبُوا" من كَبَّ، يَكْبُ، فتكرر فعل "كَبَّ" مرتين في كلمة واحدة، فكأنّ عملية كب الكفار الشديدة في جهنّم لها صوت عبّرت عنه صوت قلقله الباء الشديدة و المجهورة و القوية، فجاءت مناسبة لعملية الكب الشديدة و العنيفة، و كأنّ لهذا الكب المتتالي صوت أشارت إليه صوت قلقله الباء و صفتها .

أما عن صفة الهمس فمعناها لغة الخفاء، واصطلاحا خفاء التصويت بالحرف، وحروفها هي الحاء والهاء و الشين و الخاء والصاد و الفاء و السين و الكاف و التاء.⁶ فإذا أخذنا صفة الهمس في السنين، في سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغَيْتَةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ الناس: (1-6) فإننا نجد حرف السين في رؤوس الآي كلها، و تكرر في فعل "يُوسُوسُ" في السورة ذاتها، فإن: صوت السين المهموس و الرخو يخدم معنى الآيات و موضوع السورة، فموضوع السورة يتكلم عن التعوذ من وسوسة

¹ محمود خليل الحصري، المرجع السابق، ص101

² ابن الجزري، النشر ، تحقيق محمد علي الضباع، (ج1، ص203)

³ السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص594

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد الله المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان، الطبعة 1، سنة 2006، (ج16-ص46)

⁵

⁶ محمود خليل الحصري، أحكام تلاوة القرآن، مصدر سابق، ص83

الشیطان، التي هي من فعل : وَسَّوَسَ، يُوسِّسُ، فجاء صوت السّين الخافت خادماً لصوت الوسوسة وهي الصوت الخفي،¹ حتى أنّ السّين في آخر كلمة " الحنّاس " توحى بصوتها خفاء الشيطان لأنّه ختّاس و معناه المستتر.

وهناك أمثلة كثيرة في القرآن الكريم جاءت أصوات الحروف خادمة لمعاني الآيات فعلى سبيل المثال كلمة " أفٍ " في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ الإسراء: 23، قال الزمخشري((538هـ): "أفٍ" صوت يدل على التضجر.²

فإذا جئنا إلى صفات حرف الفاء، فهي حرف مهموس يجري في مخرجها هواء كثير، فهي أكثر الحروف همساً، و بالتالي فصوتها خافت جداً، ولقد جاء صوتها خادماً لمعنى الآية، فالله سبحانه نمانا أن نظهر التضجر للآباء بأقل عمل و هو عمل اللسان، فقد عبّر الله عن أقل الأذى بأوجز كلمة.³ فالعنى الإجمالي للآية: لا تظهروا التضجر لآباءكم في حال كبرهم و لو بكلمة " أفٍ " و إن كان لها صوت خافت لا يسمعه الآباء. والله أعلم

و كذلك حرف الهاء في الكلمات التي جاءت فيها هاء السكت في سورة الحاقة، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَيَمِينَهُ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءْ وَكُتَيْبَهُ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيهِ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ فُطُوفُهَا دَائِمَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْحَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَبِشْمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِمَاحِسَابِيهِ ﴿٢٦﴾ يَلِيَّتْهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَةٌ ﴿٢٨﴾ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةٌ ﴿٢٩﴾﴾ الحاقة: 19-29

فالملاحظ أنّ صفة خفاء التصويت في الهاء ظاهر بسبب صفة الهمس التي سببها، مرافقة خروج الهواء الكثير في حرف الهاء، وكما هو معروف أنّ مخرج الهاء هو الحلق، لكن يبدأ خروج صوت الهاء من الصدر، بدليل أنّ صوت الهاء هو صوت التنهد عند الإنسان، أو صوت تنفس الإنسان التي كان يجري ثم توقف ليستريح فوضع يده على صدره، فالهواء يخرج من أعماق صدره، فهذا الصوت يناسب الحالة النفسية التي جاءت تتكلم عنها الآيات، فأما من أوتي كتابه بيمينه، فقال: " هَآؤُمُ اقْرَءْ وَكُتَيْبَهُ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيهِ " فإنّ صوت الهاء الموقوف عليها تعبّر عن شدة فرحه من أعماق قلبه بعد التعب من هول يوم القيامة، كما أنّها تعبّر عن شدة حزن صاحب كتاب الشمال من أعماق قلبه، عندما قال: "

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق(9- 175)
² محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 2009، ص594
³ الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، مصدر سابق، (ج15، ص70)

فَيَقُولُ يَلَيَّنِي لَوُوتٌ كَتَبِيَّةٌ ﴿٥٥﴾ وَلَوْ أَدْرِمَا حِسَابِيَّةً ﴿٦٦﴾ يَلَيَّنِيهَا كَانَتْ الْقَاضِيَّةَ ﴿٧٧﴾ مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٨٨﴾ هَكَكَ عَنِّي سُلْطَنِيَّةٌ ﴿٨٩﴾
ومثله في القرآن كثير .

ب- تساوي فونومينات الألفاظ في رؤوس الآي

لعل أقدم إشارة تدعو إلى التأمل في أصول الأداء القرآني، ما روي عن الإمام علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ ﴿٤﴾ المزمّل: 4، أنه قال: " الترتيل تجويد الحروف، و معرفة الوقوف". قال عبد الله بن محمد النكزاي (683هـ): " باب الوقف عظيم القدر، جليل الخطر، لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن، و لا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل.¹ للوقف على رؤوس الآي مع حسن الأداء؛ وقع على الأسماع بسبب تساوي النبرات الصوتية في آخر لفظة كل فاصلة، يقول الرافي: " إن الأصوات ثلاثة أنواع، صوت النفس، وصوت العقل وصوت الحس، فأما صوت النفس، وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها، و مواقع ذلك من تركيب الكلام و نظمه على طريقة متساوقة و على نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس، إن وقف عندها هذا المعنى قُطع به.²

ويقول الدكتور محمد علي الصغير عن رؤوس الأي في سورة البلد من قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴿البلد: 15-16، ما هذا الإيقاع المجلجل؟ وما هذه النبرات الصوتية الرتيبة؟ وما هذا النسق المتوازن؟ العقبة، رقبة، مسغبة، مقربة، متربة، أصداء صوتية متلاحقة، في زنة متقاربة، زاداها السكت رنة وتأثيرا ولطف تناغم، وسط شدة هائلة مرعبة، و خيفة من حدث نازل متوقع، فالافتحام في مصاعبه ومكابده، و العقبة في حراجتها و التوائها و مخاطرها، يتعانقان في موضع واحد، يوحي بالرهبة، و الفرع.³

¹ محمد حسين علي الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة 1، سنة 2000، ص105

² الرافي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصدر سابق، ص220

³ محمد حسين علي الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة 1، سنة 2000، ص151

هذا التناسق الصوتي في ألفاظ القرآن . في علم الصوتيات . ؛ هو التناسق الفونيمي، ويعرف الفونيم في علم الصوتيات بأنه جزء من النظام الصوتي في الكلمة، الذي هو أصغر وحدة لغوية مجردة تشارك في المعنى، ويغير وقوعها تغييرا في المعنى.

وقد عرّفه محمد خولي في معجمه - معجم علم الأصوات- بأنه أصغر وحدة صوتية عن طريقها يمكن التفريق بين المعاني، واستخدمه أكثر الأصواتيين العرب بلفظه الأجنبي مرسوما بالحرف العربي (فونيم) و (الفونيم) لكن بعضهم يترجمه بالوحدة الصوتية، ووحدة صوتية، وصوتية، ولافظ، وبعضهم عرّبه صوتيم، وآخرون أبقوه على لفظه فونيم.¹

نحو قولنا: كَتَبَ التِّلْمِيذُ الدَّرْسَ؛ تقطع الجملة إلى وحدات صوتية، وتمثل لهذا كالاتي: "ك + فتحة + ت + فتحة + ب + فتحة + ال + ت + كسرة + ل + م + كسرة + دُ + ضمة + ال + د + فتحة + ز + س + فتحة" وأي تغيير لوحدة صوتية من هذه الوحدات تؤدي إلى تغيير في الدلالة، كأن نغير تاء فعل كَتَبَ بحرف السين فتصبح؛ كَسَبَ.²

يقول الرافعي: "وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، و تراها أكثر ما تنتهي بالنون و الميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة و تقطيع كلماتها.³

ولنأخذ مثلا على ذلك؛ سورة الشمس؛ قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَدَنَهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَلَهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١﴾

¹ محمد خولي، معجم علم الأصوات، مطابع الفرزدق التجارية، الملز، الطبعة الأولى 1402 هـ 1982م، ص 125.

² عدة الزهرة، تجليات الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم في ظل التحليل الفونولوجي، سورة مريم أنموذجا، رسالة دكتوراه، تحت إشراف: أ.د ناعوس بن يحيى، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، جامعة غليزان، الجزائر، ص 46

³ الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصدر سابق، ص: 216-217

إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٤﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٦﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٧﴾ الشمس: 1-15

فنهايات كلمات رؤوس الآي هي: ضَحَاهَا، تَلَاهَا، جَلَاهَا، يَغْشَاهَا، بَنَاهَا، طَحَاهَا، سَوَّاهَا، تَقَوَّاهَا،
زَكَّاهَا، دَسَّاهَا، طَعَّوَاهَا، أَشَقَّاهَا، سُقِّيَاهَا، عَقَرُوهَا، سَوَّاهَا، عُقْبَاهَا.

نلاحظ أنّ كلا من: ضَحَاهَا، تَلَاهَا، جَلَاهَا، بَنَاهَا، متساوية من حيث الفونومينات الصوتية التي
هي ثلاثة، ونلاحظ كذلك أنّ كلا من: يَغْشَاهَا، سَوَّاهَا، تَقَوَّاهَا، زَكَّاهَا، دَسَّاهَا، طَعَّوَاهَا، أَشَقَّاهَا،
سُقِّيَاهَا، عَقَرُوهَا، سَوَّاهَا، عُقْبَاهَا ؛ عدد فونوميناتها أربعة.

كما نلاحظ أنّ جميع رؤوس الآيات في هذه الصورة انتهت بهاء ممدودة بألف و قبلها حرف ممدود
بألف أيضا، ممّا يعطي لصوت نهايات هذه الآيات نغما منتظما بسبب المقدار المتساوي.

وهذا الملحح موجود في رؤوس كلّ الآي القرآنية عند الوقف عليها مهما كانت حركتها ومهما كانت
صيغتها الصرفية، يقول الدكتور محمد علي الصغير: ولما كان مبنى الفواصل القرآنية على الوقف في
مختلف صورها مرفوعة ومجرورة ومنصوبة اسما كانت أم فعلا، مفردا أم مثنى أم جمعا، مذكرا ومؤنثا، فإن
الوقف في مجالها متميز الأبعاد.¹

خاتمة

لا يزال القرآن يبهر الباحثين من كل الأديان . و حتى الملحنين . في مجالات كثيرة من مواضيع
الإعجاز فيه، ولقد جاء هذا القرآن أولا ليعجز العرب في بلاغتهم و حسن بياهم ، و لكن هذا الوحي
الإلهي أعجز كل العلماء في كل العصور وفي جميع مجالات البحث، ومنها المجال الصوتي و الفني فيه.

و إنّ من أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا البحث: هو الحسن و الجمال في أصوات حروف
القرآن و في ألفاظه و في رؤوس الآي، وفي التناسق الصوتي ؛ متمثلا في الإيقاع الموسيقي الجميل لهذه
الألفاظ و هذه الوقوفات المطرزة بالمدود و بالغنن، بأحسن أسلوب و أوجز كلام، بحيث تصل المعاني

¹ محمد علي الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، مصدر سابق، ص 10

بأقصر طريق إلى الأفهام، وكأنّ الله أراد مخاطبة القلوب قبل مخاطبة العقول، فخاطبها بما تحب أن تسمع من أصوات، تطرب لها الآذان ، فتدخل القلوب بغير استئذان.

حقاً إنّ القرآن الكريم هو الكتاب المعجز في كل شيء، كيف لا، و قد قال الله تعالى: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْأَكْتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام: 38، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع و المصادر

المعاجم:

- 1- أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان
 - 2 - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان
 - 3- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، وزارة التربية و التعليم، مصر، طبعة 1994
- ### التفاسير و اللغة وعلوم القرآن
4. محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 2009.
 - 5 أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد الله المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان، الطبعة 1، سنة 2006
 6. الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير، تفسير التحرير و التنوير ، دار التونسية للنشر ط 1984
 7. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وتعليق مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى سنة 2008.
 8. ابن جني، سر صناعة الإعراب، جامعة القصيم، السعودية.
 9. أحمد زرقة، أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر و التوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى 1993
 - 10- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيوت، لبنان، الطبعة التاسعة سنة 1973
 - السيد قطب، التصوير الفتي في القرآن، دار الشروق، القاهرة ، مصر، الطبعة 17، سنة 2004
- ### كتب علم الصوتيات
- 11- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب القاهرة، مصر، طبعة سنة 1997.

12- محمد حسين علي الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة 1، سنة 2000.

13. محمد خولي، معجم علم الأصوات، مطابع الفرزدق التجارية، الطبعة الأولى 1402 هـ 1982 م. كتب التجويد و القراءات

14. محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد علي الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، مصر، كتاب مصور

15. محمود خليل الحصري، أحكام قراءة القرآن، تعليق: محمد طلحة بلال منيار، المكتبة المكية، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثالثة سنة 1997

الرسائل الجامعية و المقالات

16. عدة الزهرة، تجليات الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم في ظل التحليل الفونولوجي، سورة مريم أنموذجا، رسالة دكتوراه، تحت إشراف: أ.د ناعوس بن يحيى، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، جامعة غليزان، الجزائر.

17- دفة بلقاسم، نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم _ دراسة دلالية- مجلة كلية الآداب الإنسانية و الاجتماعية جوان 2009، جامعة محمد خيضر، بسكرة .